

عشر قواعد في تزكية النفس



إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
غفر الله له ولوالديه

الطبعة الأولى
٢٠١٨/١٤٣٩

طبع على نفقة بعض المحسنين
جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة

عَشْرُ قَوَاعِدَ فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ

ح عبدالرزاق عبدالمحسن البدر، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر، عبدالرزاق عبدالمحسن حمد

عشر قواعد في تزكية النفس./ عبدالرزاق عبدالمحسن حمد البدر

٤٨ ص؛ ١٢ × ١٧ سم

ردمك: ٠ - ٦٩١٥ - ٠٢ -٦٠٣- ٩٧٨

١- التقوى ٢- الأخلاق الإسلامية أ- العنوان

ديوى ٢١٢,٢ ١٤٣٩/٦١٢٢

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٦١٢٢

ردمك: ٠ - ٦٩١٥ - ٠٢ -٦٠٣- ٩٧٨

تمَّ تنسيقُ هذه المادة ومُراجعتها في



هاتف: ٩٦٥٥٠٣٥٠٠٧٧+ البريد الالكتروني: maktab.etqan@gmail.com

عشر قواعد في تزكية النفس

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

غفر الله له ولوالديه

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء، وخاتم المرسلين، نبيِّنا وقُدوتنا وقُرَّة أعيننا محمَّد بن عبد الله الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن سار على هديهم إلى يوم الدِّين، أمَّا بعدُ:

فالنَّفسُ التي بين جَنْبَي الإنسان أمرُهَا عظيمٌ، وشأنها كبيرٌ، فقد أقسم الله عزَّ وجلَّ بعددٍ مِن مخلوقاته الكِبار الدالَّة على عظمته ﷻ في سورة الشمس على النَّفس المُفلِحة، وغير المُفلِحة، فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾: أصل الزكاة: هي الزيادة في الخير، والمُراد بالآية هنا أن مَن سعى في تزكية نفسِهِ، وإصلاحها، وسُمُوِّها بالاستكثار من الطاعات والخيرات، والابتعاد عن الشرور والسيئات تحقَّق فلاحُه.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾: أصل التَّدْسِية: هو الإخفاء، فالعاصي قد أخفى نفسَهُ الكريمة بفِعل الآثام، وطَمَرها بالرذائل والخسائس، وقَمَعها وأهلكها بفعل العُيُوب، حتى صارت نَفْسًا دنيئةً وَضِيعة مُنحطَّة، واستحقَّت بذلك الخيبة والخُسران والعياذ بالله.

«فالنفوسُ الشريفةُ لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، وأفضَلِها، وأحمَدِها عاقبة، والنفوسُ الدَنِيئةُ تحومُ حولَ الدَّناءات، وتقعُ عليها كما يقعُ الذُّبابُ على الأقذار، فالنَّفسُ الشريفةُ العليَّة لا ترضى بالظُّلم، ولا بالفواحش، ولا بالسَّرقة، والخيانة؛ لأنها أكبرُ مِن ذلك وأجَلُّ،

والنَّفسُ المَهِينةُ الحقيرةُ الخسيسةُ بالضدِّ مِن ذلك، فكُلُّ نَفْسٍ تَمِيلُ إلى ما يناسبها ويُشاكِلُها»[1].

ولمَّا كانت تزكية النَّفس بهذه الأهمية وجبَ على كلِّ مسلم ناصِحٍ لنفسِهِ أن يُعنى بها عناية فائقة، وأن يُجاهِدَ نفسَهُ في حياتِهِ على تحقيقِ هذه الغاية الحميدة؛ ليُفلِحَ في دُنياهُ وأُخراه، وينعَمَ بالسَّعادة الحقيقيَّة.

فإنَّ للنَّفس على المسلمِ حقًّا كما قال رسول الله ﷺ: «وإنَّ لنفسِكَ عليك حقًّا»، ويُخطِئُ مَن يَظُنُّ أنَّ حقَّ النَّفس يكونُ بالتَّشديد عليها وحِرْمانها مِن حُقُوقها التي فطر الله ﷻ النُّفوسَ على الاحتياج إليها، كما يُخطِئُ مَن يظُنُّ أنَّ حقَّ النفسِ يكونُ بالتفريطِ، وإهمالِ سِياسَتِها، وتركها منغمسةً في شهواتها، ونحو ذلك.

وهيهات أن تكون تزكية النَّفس بمثل ذلك؛ بل تزكية

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٧٨).

النَّفس تكون بالمسالك الشَّرعية، وبالتوسُّط والاعتدال، فلا إفراط ولا تفريط، بل بلزوم هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ونهجِه القويم.

وسأذكر في هذا المختصر عشر قواعد مهمَّة، تُعين المسلمَ على تزكية نفسِهِ وتنميتها، وتطهيرها مِن كُلِّ ما يُدنِّسها ويشينُها.

وأسأل الله تعالى أن يُزكِّي نُفُوسَنا، وأن يُصلحَ أعمالنا، وأن يُسدد أقوالنا، وأن يُبصِّرنا بالحقِّ ويَرزقنا اتِّباعه، وأن يهدينا لأحسن الأخلاق والأعمال، وأن يَصرِفَ عنَّا سيِّئَها، وأن يجنِّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

❁ ❁ ❁






القاعدة الأولى

التوحيدُ أصل ما تزكو به النُّفوس

إنَّ التوحيدَ هو الغاية التي مِن أجلها خلقَنا الله عَزَّوَجَلَّ وأوجدَنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وهو أيضًا مِحور دعوة الأنبياء والرسُل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

والتوحيد هو أوَّل ما يجبُ على الإنسان للدُّخول في دين الإسلام، وكذلك هو أوَّل ما يجبُ على الداعيةِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعلِّمَه للنَّاس، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما بعثَهُ إلى اليمن: «**إنَّك تَقدَمُ على قومٍ من أهل الكِتاب، فلْيَكُن أوَّلَ ما تدعوهم إلى أن يُوَحِّدوا الله تعالى**»[1].

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم: (٧٣٧٢).

وقد توعَّد الله ﷻ الذين لا يزكون أنفسهم بالتوحيد والإيمان بالعذاب الشديد يوم القيامة فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية السابقة: «هي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب؛ فإنه يتضمن نفيَ إلهية ما سوى الحَقِّ من القلب، وإثبات إلهية الحقِّ في القلب، وهو حقيقة (لا إله إلا الله)، وهذا أصل ما تزكو به القلوب»[1].

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد؛ شهادة أن (لا إله إلا الله)، والإيمان الذي به يزكو القلبُ...وهو أصلُ كُلِّ زكاةٍ ونَمَاءٍ ...»[2].

وكما أنَّ التوحيدَ هو أصلُ ما تزكو به النُّفوسُ وتَطْهُرُ، فإنَّ الشِّرك هو أشدُّ ما يدُنِّسُ النُّفوسَ ويفتِكُ بها، بل هو مُحبِطٌ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩٧).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٧٩).

لجميع الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهو الذَّنب الذي لا يَغفرُهُ الله عَزَّ وَجَلَّ أبدًا لمن مات عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

وحرَّم الله عَزَّ وَجَلَّ الجنَّةَ على كُلِّ مَن أشرك معه غيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

فإذا حقَّق العبدُ التوحيدَ حصلتْ له الزكاة الكاملة، وحصلتْ له الهدايةُ والأمنُ التَّامَّان في الدنيا والآخرة، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له خلصت أعماله



وصحت، وزكت نفسه وطابت، ومتى أدخلَ عليها ما يشُوبُها مِن شوائِبِ الشِّرك دَخَلَ على نفسِهِ مِنَ الدَّنس والتَّدسِية بحسب ذلك.

فلا زكاةَ للنَّفسِ إلا بتحقيق التوحيدِ، وإفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة، وإخلاص العمل له، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾.

ولا زكاة للنَّفس إلا بتخليصِها مِن الشِّرك بجميع أنواعه، وتخليصها من كُلِّ ما يُناقِض التوحيدَ ويُضعِفُهُ.






القاعدة الثانية

الدُّعاء مِفتاح زكاة النُّفوس

قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (ليسَ شيءٌ أكرمَ على الله تعالى مِن الدُّعاء)[1].

فالدُّعاء من أفضل العبادات عند الله ﷻ؛ لأن فيه إظهارًا للعَجز والافتِقار، والتَّذلل، والانكِسار، والاعتراف بقوة الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته، وغناه وإغنائه، وكبريائه، وجبر كسر خواطر أعدائه، فضلًا عن فُضلاءِ أحبابه وأوليائه[2].

وله أثرٌ عظيمٌ في فتح أبواب الخير؛ كما قال شيخ الإسلام في وصيَّتِهِ لأبي القاسم المغربي: «الدُّعَاء مِفتاحُ كل

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم: (٣٣٧٠)، وابن ماجه في «سننه» رقم: (٣٨٢٩)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم: (٥٣٩٢).

(٢) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٤/ ١٥٢٧).



خير»[1].

فكلُّ خيرٍ ترجوه لنفسك وتريده من خيرات الدنيا والآخرة، فاطلبه من الله والجأ إليه في نيله وتحصيله.

وقد وعد اللهُ ﷻ من دعاه والتجأ إليه بالإجابة، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

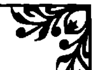
وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدُّعاء؛ فإذا أُلهِمتُ الدُّعاءَ فإن الإجابة معه»[2].

وعن مُطرِّف بن الشِّخِّير قال: تَذَكَّرتُ ما جِمَاعُ الخَيرِ، فإذا الخَيرُ كثيرٌ: الصَّومُ، والصَّلاةُ، وإذا هو في يَدِ اللهِ عز وجل، وإذا أنتَ لا تَقدِرُ على ما في يدِ اللهِ عز وجل إلا أن تَسأَلَهُ فَيُعطِيَكَ،

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٦١).

(٢) أخرجه «الترِّمذي» في «جامعه» رقم: (٣٣٧٠)، و«ابن ماجه» في «سننه» رقم: (٣٨٢٩)، وحسَّنه الألباني في «الترغيب» (٢/ ٢٧٠).



فإذا جِماعُ الخيرِ الدُّعَاءُ»[1].

وفي «باب التَّزكية» صحَّ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنَّه قال في دعائه: (**اللهمَّ آتِ نفسي تقواها وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زكَّاها أنتَ وليُّها ومولاها**)[2].

وفي هذا الدُّعاء إشارةٌ وتنبيهٌ على أنَّ تزكية النفوس بيد الله جل جلاله علَّام الغيوب، وأن مفتاحَها الأعظم هو الدعاءُ والافتقارُ إلى الله تعالى.

ولهذا كان أكثر دعاء النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «**يا مُقلِّبَ القُلوب ثبِّت قلبي على دينك**».

فمتى اجتمع على العبد قلبُهُ، وصدقت ضرورَتُهُ وفاقَتُهُ، وقوي رجاؤه، ولم يتعجَّل الإجابة، وتحرى الأوقات الفاضلة، فلا يكاد يرد دعاؤُهُ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» رقم:(١٣٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم: (٢٧٢٢).



وأعظم ما يعينك على الدعاء معرفتك أن زكاة نفسك بيد الله عز وجل، فالله ﷻ هو الذي يزكِّي مَن يشاء، والأمرُ كلُّه له، وتحتَ مشيئَتِهِ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾: «ما اهتدى أحدٌ مِن الخلائق لشيء مِن الخير يَنْفَعُ به نفسَهُ، ولم يتَّقِ شيئًا من الشَّر يدفَعُهُ عن نفسِهِ»[1]، أي: كُلُّ ذلك إنَّما هو بمَحْضِ فضل الله عز وجل.

وقال البراء رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ الأحزاب ينقل معنا التراب، ولقد وارى الترابُ بياضَ بطنِهِ، وهو يقول:

واللهِ لولا اللهُ ما اهتَدَينا ... ولا تصدَّقنا ولا صَلَّينا[2]

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم: (٤١٠٤)، ومسلم في «صحيحه» رقم: (١٨٠٣)، واللفظ له.

فالهدايةُ والإيمانُ والخيرُ كلُّهُ بيد الله وَحْدَه، وقد كان رسول الله ﷺ يَغرِسُ هذا الأمرَ في نفوس الصَّحابة ﵃، ويؤكِّد عليه باستِمرار، فكان ﷺ يستَهِلُّ خطَبَهُ بقوله: «**من يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادِيَ له**»[1].

فهذا الأصل هو أعظم الأبواب لتزكية النَّفس، فمَن علم أنَّ صلاحَ نفسِهِ وزكاتها واستِقامتها بيد الله ﷻ؛ لجأ إليه، وأقبل على بابه مُلِحًّا عليه بالدُّعاء، راجيًا طامِعًا؛ لينال مِنهُ زكاة نفسِهِ، ونجاتها وفلاحها في الدنيا والآخرة.

❊❊❊

(١) أخرجها الإمامُ مسلم في «صحيحه»، رقم: (٨٦٨)، من حديث ابن عباس ﵄، وأخرجها أبو داود في «السنن»، رقم: (١٠٩٧)، والترمذي في «الجامع»، رقم: (١١٠٥)، والنسائي في «السنن الكبرى»، رقم:(٣٢٧٧)، وابنُ ماجه في «السنن»، رقم: (١٨٩٢)، كُلُّهم من حديث عبد الله ابن مسعود ﵁.



القاعدة الثالثة
القرآنُ الكريم مَنبعُ التَّزكيـةِ ومَعينُها

قال الله ﷻ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾.

فأعظمُ ما تزكو به النفس القرآنُ الكريمُ، الذي هو كتابُ التَّزكيـةِ ومَنبعُها ومَعينُها ومَصدرها، فمن أراد لنفسه التزكية فليطلبها في كتاب الله عزَّ وجلَّ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ضَمِنَ الله لمَن اتَّبعَ القرآنَ أن لا يَضِلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ثم تلا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾»[1].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، رقم (٣٥٩٢٦).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «القرآنُ هو الشِّفاء التامُّ من جميع الأدواء القلبيَّة والبدنيَّة، وأدواء الدُّنيا والآخرة»[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾، وتلاوة الكتاب حقَّ التلاوة: تكون بقراءته وحفظه، وفهمه وتدبُّره، والعمل به؛ كما فسَّره بذلك الصَّحابة والتَّابعون.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كان الرَّجل مِنَّا إذا تعلَّم عشر آيات، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[2].

وقراءة القرآن دون فهم معانيه، أو العمل بما جاء فيه لا تُعَدُّ تلاوةً بِحَقٍّ، ولذا يقول الفُضيل بن عياض رحمه الله: «إِنَّما نَزل القرآنُ ليُعْمَلَ به ، فاتَّخذَ الناسُ قراءَتهُ عملًا»[3].

وإذا أكرمَ اللهُ تعالى عبدَهُ بتلاوة القرآن وتدبُّرِهِ ومجاهدة النَّفس على العمل به نال من التزكية أوفر نصيب.

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١١٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» رقم: (٢٣٤٨٢).

(٣) أخرجه الآجريُّ في «أخلاق حملة القرآن» (ص٤١).



القاعدة الرابعة

اتخاذ الأسوة والقُدوة

قال الله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله»[1].

وقال الحسن رحمه الله: «قال قوم على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: إنَّا نحب ربنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾»[2].

فاتباع الرسول ﷺ والتأسي به دليلٌ على صدق محبة الله تعالى؛ لأنَّ الاتباع والاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام والسير على

(١) تفسير ابن كثير (١١/ ١٣٣).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٣٢٢).

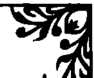


منهاجه القويم هو عين التزكية، ولا يمكن الوصول إليها بغير ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

ويُحدِثُ أئمَّةُ الضَّلال في كلِّ زمانٍ طُرُقًا مُنْكَرةً يُدَّعى فيها أنها تُزَكِّي النفوس، وتُهَذِّبُ القلوبَ، وتقوِّي الصلة بالله، إلى غير ذلك مما يقال، ويُوصونَ بالانقِطاع عن الجماعات والخلوة في أماكنَ مظلمةٍ، وترداد أذكار خاصة، وألفاظٍ معينةٍ يُزعم أنها تزكي وتهذِّب وتربي النفوس، إلى غير ذلك من الدعاوى الباطِلة.

يقول العلامةُ ابن القيم رحمه الله: «تزكية النُّفوس أصعبُ مِن عِلاج الأبدان وأشَدُّ، فمَنْ زكَّى نفسَهُ بالرياضة والمجاهدة والخَلوة التي لم يجئ بها الرسل هو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقعُ رأيُهُ مِن معرفة الطبيب؟!

فالرُّسُلُ أطباءُ القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقِهِم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم



لهم، والله المستعان»(1).

وأيضًا فجميع الأعمال التي ليس عليها أمر النبي ﷺ مردودةٌ على صاحبها، كما قال النبي ﷺ: **«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»**(2)، أي: مردودٌ على صاحبه.

قال الإمام سفيان بن عُيَينةَ رحمه الله: «إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، فعليه تُعْرَضُ الأشياء؛ على خُلُقِهِ، وسِيرَته وهَدْيه، فما وافقها فهو الحقُّ، وما خالَفها فهو الباطل»(3).

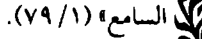
ولهذا وجب على مَن أرادَ تزكية نفسه أن يُجاهد نفسه على الاتباع، والاقتداء، والتأسي بالرسول ﷺ، والحذر من المحدثات والمخترعات والطرائق المبتدعات التي يدَّعي أربابها أنها تزكي النفوس.

---

(1) «مدارج السالكين» (2/ 300).

(2) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم: (1718).

(3) أخرجه الخطيب في مقدمة كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (1/ 79).







القاعدة الخامسة

التَّزكيةُ تَخْلِيَة وتَحْلِية

إنَّ حقيقةَ التزكية: تخلية النفس **أولاً**؛ بتطهيرها عن الرذائل والمعاصي والذنوب، ثم تحليتها بعد ذلك بفعل الطاعات والقربات، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، فقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: فيه إشارةٌ إلى مقامِ التخلية عن السيئات بتطهيرهم من الذنوب، وقوله تعالى ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: فيه إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات، وتقديم التطهير على التزكية من باب تقديم التخلية على التحلية.

فلابُدَّ لمَن أراد تزكية نفسِهِ أن يُقلعَ أولًا عن الذنوب والآثام التي تُفسِدُ القلبَ، وتحجِبُ عنه نورَ الهداية والإيمان، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ العبدَ إذا أخطأ خطيئةً نُكِتَتْ في قلبه نُكتَةٌ سوداءُ، فإذا هو نَزَعَ واستغفر وتاب سُقِلَ قلبُهُ،**

وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبَهُ، وهو الران الذي ذكر الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[1]، ثم يُجاهِدُ نفسَهُ على الاستِكثار من الصالحات التي تزكو بها نفسُهُ، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قال ابن تيمية رحمه الله: «فالتزكيةُ وإن كان أصلها النماء والبركةُ وزيادةُ الخير، فإنما تَحْصُلُ بإزالة الشَّرِّ؛ فلهذا صار التزكِّي يجمعُ هذا وهذا»[2].

وقال ابن سعدي رحمه الله عند قوله الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾: «أي: بالإيمان والعمل الصالح؛ **بالتخلي** عن الأخلاق الرذيلة، **والتحلي** بالصفات الجميلة»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» رقم: (٣٣٣٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٢٦٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩٧).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٨٢).



القاعدة السادسة

إغلاق المنافذ التي تخرج بالإنسان عن التَّزكية وتُبعده عن الفضيلة وتوقعه في الرذيلة

فيحتاج العبد حاجةً ماسةً إلى إغلاق المنافذ التي تُدَنِّسُ نفسَهُ وتُدَسِّيها، وقد ضُرِبَ لنا في السُّنَّة مَثَلٌ يُبيِّن خطورة وُلوج العبد فيما يضيِّعُ عليه دينَهُ، ففي الحديث قال ﷺ: «ضَربَ اللهُ مثلًا صراطًا مستقيمًا وعلى جَنَبتي الصِّراط سُوران فيهما أبوابٌ مُفَتَّحةٌ، وعلى الأبوابِ سُتُورٌ مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تتعرجوا وداعٍ يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي



على رأس الصراط كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم»[1].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن كان في الدنيا قد خرج عن الاستقامة على الصراط، ففتح أبواب المحارم التي في ستور الصراط يمنة ويسرة، ودخل إليها -سواء كانت المحارم من الشهوات أو من الشبهات- أخذته الكلاليب التي على ذلك الصراط يمنة ويسرة، بحسب ما فَتَح في الدنيا من أبواب المحارم ودخل إليها»[2].

ومنه قول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾.

قال أبو حيَّان الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قُدِّم غضُّ البصر على حفظ الفرج لأنَّ النظر بريد الزِّنا، ورائد الفجور، والبلوى

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، رقم: (١٧٩٠٩).



(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (١/ ٢٠٦).



فيه أشدُّ وأكثر»[1].

وقال الشيخ السعديُّ رحمه الله: «فإنَّ مَنْ حَفِظَ فَرجَهُ وبصره، طَهُرَ من الخبث الذي يتدنَّس به أهل الفواحش، وزكَتْ أعمالُهُ، بسبب ترك المُحرَّم، الذي تطمع إليه النَّفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه»[2].

ولذا كان مِن حُسن إسلامِ المرء تركه ما لا يعنيه، مِن فضول الكلام، والنَّظر، وغير ذلك.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وأكثر المعاصي إنَّما تولُّدها من فضول الكلام والنَّظَر، وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتيهما لا يملَّان ولا يسأمان»[3].

فينبغي على العبد أن يكون عاقلاً كيِّسًا فيسألَ اللهَ عزَّ وجلَّ

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (٨/ ٣٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٦٦٠).

(٣) «بدائع الفوائد» (٢/ ٨٢٠).



الصَّبرَ والنَّجاةَ، وأن يقطع كُلَّ الطُّرق المؤدية لضياع نفسه وفجورها؛ فدينُ العبدِ رأسُ ماله، وفي ضياعه خسارة الدنيا والآخرة، لاسيَّما في زماننا الذي وقعت فيه الفتنُ على الناس كوقعِ المطر، وانفتحت فيه أبواب الشُّبهات والشَّهوات مع هذه الأجهزة الحديثة، والمواقع المشبوهة، والبرامج المنحرفة، حتى ساقتْ كثيرًا من الناس إلى الغواية، وصَرَفتهم عن الهِداية، -نسأل الله العافية-.

❁ ❁ ❁





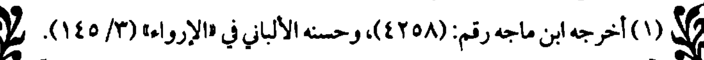

القاعدة السَّابعة

تذكر الموت، ولقاء الله عَزَّوَجَلَّ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكرَ هادم اللذات**»، يعني الموت[1].

الموت هو الفيصل بين هذه الدار ودار القرار، والفاصل بين وقت العمل والجزاء عليه، وهو الحدُّ الفارق بين تقديم الزاد وملاقاة جزائه، فلا مجال بعده للتوبة والاستِغفار من السيئات، ولا مجال بعده للاستِكثار من الحسنات كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ﴾.



(١) أخرجه ابن ماجه رقم: (٤٢٥٨)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٣/ ١٤٥).



ثمَّ هو مُدركٌ كلَّ النَّاس لا محالة، وملاقيهم بلا ريب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

وهو مع ذلك يأتي للأنام فجأةً، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، فكَمْ من إنسان خرج من بيته يقود سيارته فرجعَ محمولًا على الأكفان، وكم من إنسان قال لأهله: «هيئوا لي طعامًا» فمات ولم يطعَمْهُ، وكم من إنسان لبس ثوبَهُ، وزرَّ زِرارَهُ، ولم يفكَّ زِرَارَ ثوبه إلا الغاسلُ.

ففي ذكر العبد للموت منفعة عظيمة؛ فبذلك تستيقظُ القلوب الغافلة، وتحيا القلوب الميتة، ويحسن إقبال العبد على الله عَزَّوَجَلَّ، وتزول الغفلة والإعراض عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

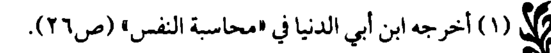
قال سعيد بن جُبير رَحِمَهُ اللهُ: «لو فارقَ ذكرُ الموت قلبي خَشِيتُ أن يفسُدَ عليَّ قلبي»[1].

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» رقم: (٢٢١٠).

ولا يزالُ العبدُ بخير ما كان ناظرًا لموقِفِه بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة بعد مماته، ومصيره بعد الممات.

قال سفيان بن عيينة رحمه الله: يقول إبراهيم التيمي رحمه الله: «مَثَّلتُ نفسي في الجنة؛ آكلُ ثمارَهَا، وأشربُ مِن أنهارِهَا، وأعانِقُ أبكارَها، ثمَّ مَثَّلتُ نفسي في النار؛ آكلُ مِن زَقُّومِها، وأشرَبُ مِن صَدِيدها، وأعالِجُ سلاسِلَها وأغلالَها؛ فقلت لنفسي: (أيْ نفسي! أيُّ شيءٍ تريدين؟)، قالت: (أريدُ أن أُرَدَّ إلى الدنيا؛ فأعملَ صالحًا) قال: قلت: (فأنت في الأُمْنِية فاعمْلي)»[1].

وقُل لها أيضًا: (يا نفس! إن أنا مِتُّ فمن ذا الذي يصلِّي عنِّي بعد الموت، ومَن سيصوم عني، ومَن يتوب عنِّي من ذنوبي وتفريطي؟!).



(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (ص٢٦).





القاعدة الثامنة

تَخَيُّرُ الجلساء وانتقاء الرفقاء

قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾.

قال السعديُّ رحمه الله في تفسير الآية: «فيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم، وإن كانوا فقراء؛ فإنَّ في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى»[1].

وقال النبي ﷺ: «**الرجلُ على دين خليله، فلينظرْ أحدُكم مَن يُخالِل**»[2].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥٤٧).



(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» رقم: (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٦٣٤).



قال أبو سليمان الخطابيُّ رحمه الله: «قوله: (المرء على دين خليله) معناه: لا تُخالل إلا مَن رَضيتَ دينَهُ وأمانته، فإنَّك إذا خاللته قادك إلى دينه ومَذهبه، ولا تُغرِّر بدينكِ، ولا تُخاطِر بنفسِكَ فتُخالل مَن ليس مرضيًّا في دينه ومذهبه»[1].

ولهذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «اعتبروا الناسَ بأخدانهم، فإنَّ المرءَ لا يُخادِن إلا مَن يُعجِبُهُ»[2].

وقال النبي ﷺ: **«مثَلُ الجَلِيسِ الصَّالحِ والسُّوءِ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكِير، فحامِلُ المسكِ إمَّا أن يُحْذِيَكَ وإمَّا أن تبتاعَ منه، وإمَّا أن تَجِدَ منه ريحًا طَيِّبةً، ونافخُ الكِيرِ إمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثيابك وإمَّا أن تجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»**[3].

قال القاضي عياض رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: «فيه تجنُّب خلطاء السُّوء ومجالسة الأشرار، وأهل البدع والمغتابين

(١) «العزلة» (ص٥٦).

(٢) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» رقم: (٣٧٦).

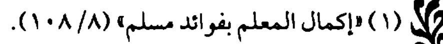
(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم: (٥٥٣٤)، ومسلم في «صحيحه» رقم: (٢٦٢٨).



للناس؛ لأن جميع هؤلاء ينفذ أثرهم إلى جليسهم، والحضُّ على مجالسة أهل الخير وتلقي العلم والأدب، وحسن الهدى والأخلاق الحميدة»[1].

فعلى العبد تَخَيُّر الجلساء الذين يعينونه على الخير؛ فإنَّهم من أعظم أسباب تزكية نفسه وصلاحها، وأن يحذرَ خُلطاء الشرِّ، وجُلساء الفساد؛ فإنَّهم أخطرُ عليه من الجرب.

❀ ❀ ❀


(١) «إكمال المعلم بفوائد مسلم» (٨/ ١٠٨).



القاعدة التاسعة
الحذر من العُجب والاغتِرار بالنفس

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، فنهى الله ﷻ عن مدحِ النَّفس بما يدلُّ على زكاتها وصلاحها؛ لأنَّ التَّقوى محلُّها القلب، واللهُ ﷻ هو أعلم بمَنْ حصلت منه التقوى، ولأنَّ هذا المدحَ للنَّفس سببٌ لدخُول العُجبِ عليها، وسببٌ للرِّياء الذي هو مُحبِطٌ للأعمال.

والمؤمن مهما اجتهد في فعل الصالحات واجتناب المحرمات فإنه لا يزال مقصِّرًا، وظالمًا لنفسِهِ، وإذا كان أبو بكر رضي الله عنه - صديق هذه الأمة، وخير الناس بعد الأنبياء - لمَّا سأل النبيَ ﷺ أن يُعلِّمَه دعاءً يدعو الله به في صلاته علمه ﷺ أن يقول: (**اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك**

أنت الغفور الرحيم)[1]، فكيف الشأن بمن هو دونه؟!

وعندما سألت أم المؤمنين عائشة ﵂ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾، قالت: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال ﷺ: «**لا يا بنتَ الصديق، ولكنَّهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم**»[2].

وقال عبد الله بن أبي مُليكة ﵀: «أدركتُ أكثر من ثلاثين صحابيًّا كلهم يخاف النفاق على نفسه»[3].

وقال الحسن البصري ﵀: «المؤمنُ جَمَعَ إحسانًا وشَفَقَةً، والمنافقُ جَمَعَ إساءةً وأمنًا، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾»[4].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: (٨٣٤)، ومسلم برقم: (٢٧٠٥).

(٢) أخرجه الترمذيُّ في «الجامع» رقم: (٣١٧٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم: (١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» تعليقًا مجزومًا به، قبل رقم: (٨٣٤).

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٨).



القاعدة العاشرة
معرفَةُ النَّفس

وممَّا يتحتَّمُ في باب تزكية النَّفس: معرفةُ حقيقة هذه النَّفس، ومعرفة صفاتِها، ليسهُل الاعتِناء بها، ورعايتها، ومداواتها من الآفات التي تطرأ عليها.

وقد وصَفَ الله ﷻ النَّفس في كتابه الكريم بثلاث صفات مشهورةٍ معلومة، وهذه الصِّفات راجِعةٌ إلى أحوال النُّفوس، وهي:

* النَّفسُ المُطمئنَّة: وهي التي اطمأنَّت بالإيمان وذكر الله تعالى وعبادته وحُسن الإقبال، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ (٢٨) فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾.



* النُّفسُ اللوَّامة: وهي التي تلومُ صاحبَها على فعله الخطأ، أو تقصيره في الواجب، أو تفريطه في الطاعة، كما قال تعالى في سورة القِيامة: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾.

* النَّفسُ الأمَّارة بالسُّوء: وهي التي تحُثُّ صاحبَها على فعل المحرمات، وارتكاب الآثام، وتقُودُهُ إلى مواطن المنكرات، ومواضِعِ الرذيلة، وتدفَعُهُ إلى فعلِ القبائح والرذائل، كما جاء في سورة يوسُف ﷺ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾.

فهذه الأوصاف الثلاثة للنَّفس هي في الحقيقة أحوالٌ متعلقةٌ بالنَّفس، ولذلك فإنَّ هذه الأحوال تتقلَّبُ وتتغيَّر، بحَسَب الوارِدات التي تَرِدُ على النَّفس، فقد تجتمعُ هذه الصِّفات عند الإنسان في يومٍ واحد بحسَب حال النَّفس.

وقد ضربَ أهلُ العِلم لهذه النَّفس أمثلةً تُبيِّن حالَها مع الإنسان، ليَسهُل تصوُّرها على المسلم، فيجتَهِدَ بعد ذلك في

إصلاحها وتزكيتها.

وأقتصرُ هنا على مثالين لإمامين جليلين:

* المِثال الأوَّل: ضربَهُ الإمام الآجريُّ رحمه الله في كتاب «أدب النُّفوس»، فقال: «وأنا أُمَثِّلُ لك مِثالًا لا يخفى عليك أمرُها -إن شاء الله-: اعلم أنَّ النفسَ مَثَلُها كمَثَلِ المُهْر الحَسَنِ مِنَ الخَيل، إذا نَظَر إليه الناظِرُ أَعْجَبهُ حُسْنُهُ وبهاؤُهُ، فيقول أهل البَصِيرة به: (لا يُنْتَفَعُ بهذا حتى يُرَاضَ رِياضَةً حَسَنَةً، وَيُؤَدَّبَ أدبًا حَسَنًا، فحينئِذٍ يُنتَفَعُ بِهِ، فيصلُحُ لِلطَّلَبِ والهَرَبِ، ويَحْمَدُ راكِبُهُ عواقِبَ تَأدِيبِهِ ورِياضَتِهِ، فإن لم يُؤَدَّبْ لم يُنتَفَعْ بِحُسنِهِ، ولا ببهائِهِ، ولا يَحْمَدُ راكِبُهُ عواقِبَهُ عند الحاجَةِ).

فإن قَبِلَ صاحِبُ هذا المُهْرِ قَولَ أَهلِ النَّصيحَةِ والبصِيرَةِ بِهِ عَلِمَ أَنَّ هذا قَولٌ صحيحٌ، فدَفَعَهُ إلى رائِضٍ؛ فَرَاضَهُ.

* ثُمَّ لا يصلُحُ أن يكونَ الرَّائِضُ إلا عالِمًا بِالرِّياضَةِ، مَعَهُ





صَبْرٌ على ما مَعَهُ مِن عِلمِ الرِّياضَةِ، فإن كان مَعَهُ بِالرِّياضَةِ ونَصَحَهُ انتَفَعَ بِهِ صاحِبُهُ.

* فإن كان الرَّائِضُ لا مَعرِفَةَ مَعَهُ بِالرِّياضةِ، ولا عِلمَ بأَدَبِ الخَيلِ أفسَدَ هذا المُهرَ، وأتعَبَ نَفسَهُ، ولم يَحمَد راكِبُهُ عَواقِبَهُ.

* وإن كان الرَّائِضُ مَعَهُ مَعرِفَةُ الرِّياضَةِ والأَدَبِ لِلخَيلِ إلا أَنَّهُ مع مَعرِفَتِهِ لم يَصبِر على مَشَقَّةِ الرِّياضَةِ، وأَحَبَّ التَّرفِيهَ لنَفسِهِ، وتوانَى عَمَّا وجَبَ عليه مِنَ النَّصيحَةِ فِي الرِّياضَةِ أفسَدَ هذا المُهرَ، وأساءَ إليه، ولم يَصلُحْ لِلطَّلَبِ، ولا لِلهَرَبِ، وكان له مَنظَرٌ بلا مَخبَرٍ.

* فإن كان مالِكُهُ هو الرَّائِضُ لَهُ: نَدِمَ على توانيهِ يوم لا يَنفَعُهُ النَّدمُ؛ حينَ نَظَرَ إلى غَيرِهِ في وقتِ الطَّلَبِ قَد طَلَبَ فأَدرَكَ، وفي وقتِ الهَرَبِ قَد هَرَبَ فَسَلِمَ، وطَلَبَ هو ولم يُدرِكْ، وهَرَبَ فلم يَسلَم؛ كُلُّ ذلكَ بِتَوانيهِ، وقِلَّةِ صَبرِهِ بعد مَعرِفَتِهِ منهُ.

ثُمَّ أَقبَلَ على نفسِهِ يلومُها، ويُوَبِّخُها؛ فيقُولُ: (لمَ فَرَّطْتِ؟ لِمَ قَصَّرْتِ؟ لقد عادَ عَلَيَّ من قِلَّةِ صبري كُلُّ ما أَكرَهُ)، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

اعقِلُوا -رحمكُمُ اللهُ- عِلمَ هذا المَثَلِ، وتَفَقَّهُوا بِهِ: تُفلِحُوا وتَنجَحُوا»[1].

فهذا المَثَل الأول يوَضِّحُ فيه الإمام الآجري رَحِمَهُ اللهُ حالَ النَّفس البشرية، وأنها كالمُهْر التي تحتاجُ إلى رياضة وصبرٍ في ترويضِها، وأن يكون على علم بالأمور التي تُصلح النَّفسَ وتزكِّيها، وأنَّ الإنسانَ إذا فرَّط في هذه المعرفة، وفي هذا التَّرويض؛ فإنَّه سيندَمُ في نهاية المطاف غاية الندم.

* **المِثال الثاني**: ضربهُ الإمامُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ قال: «النفسُ جبلٌ عظيمٌ شاق في طريق السير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وكُلُّ سائر لا طريقَ له إلا على ذلك الجبل، فلا بدَّ أن ينتهيَ إليه، ولكن منهم

(١) «أدب النفوس» للآجري (ص٢٦١).



مَن هو شاق عليه، ومنهم من هو سَهْلٌ عليه، وإنه ليَسِيرٌ على من يَسَّرَهُ الله عليه.

وفي ذلك الجبل أوديةٌ وشُعُوب، وعَقَبات ووُهُود، وشَوْكٌ وعَوسَجٌ، وعُلَّيْق وشِبرق، ولُصُوصٌ يَقْتَطِعون الطريقَ على السائرين، ولا سيَّما أهلُ الليل المُدْلِجين.

فإذا لم يكن معهم عُدَد الإيمان، ومَصابيح اليقين تتَّقِدُ بزَيت الإخبات، وإلا تَعَلَّقَتْ بهم تلك المَوانِع، وتَشَبَّثَتْ بهم تلكَ القَواطِع، وحالتْ بينهم وبينَ السَّير.

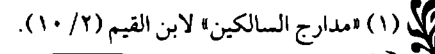
فإنَّ أكثرَ السائِرين فيه رَجَعوا على أعْقابِهِم لما عَجَزوا عن قَطْعِهِ واقتِحامِ عَقَباتِهِ.

والشيطانُ على قُلَّة ذلك الجَبَلِ -أي: أعلاه- يُحَذِّرُ الناسَ مِن صُعُودِهِ وارتفاعِهِ، ويخوِّفُهُم منه؛ فيَتَّفِقُ: مَشَقَّةُ الصُّعود، وقُعُود ذلك المُخَوِّف على قلته، وضَعْفُ عزيمة السائر ونيته؛ فيتولَّدُ مِن ذلك الانقطاعُ والرُّجُوعُ، والمعصومُ مَن عَصَمَهُ الله.

وكُلَّما رقِي السائرُ في ذلك الجبل اشتدَّ به صِياحُ القاطِعِ، وتحذيرُهُ وتخويفُهُ، فإذا قَطَعَهُ وبَلَغَ قُلَّتَهُ: انقَلَبَتْ تلك المَخاوف كُلُّهُنَّ أمانًا، وحِينَئِذٍ يَسْهُلُ السَّير، وتزولُ عنه عوارِضُ الطريق، ومَشَقَّةُ عَقَباتها، ويرى طريقًا واسِعًا آمِنًا؛ يُفْضِي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلامُ، وفيه الإقاماتُ قد أُعِدَّتْ لِرَكْبِ الرحمن.

فبين العبد وبين السَّعادةِ والفلاحِ: قوةُ عزيمة، وصبرُ ساعة، وشجاعةُ نَفْسٍ، وثباتُ قَلْبٍ، والفَضْلُ بيَدِ الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[1].

وهذا المَثَل يُبيِّنُ لنا حال النَّفسِ أيضًا؛ وأنها تحتاج من صاحبها إلى تعاهد ومُعالجة ومُداواة، فإن لم يجاهدها بالطريق الشَّرعي ويصبر على ذلك تفلَّتت منه وضيَّعته.





(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١٠).



خاتمة

وبعد ما تقدَّم من بيان هذه القواعد التي تُعين العبدَ على تزكية نفسِهِ، وتطهيرها، ظهرَ بجلاء حاجةُ النَّفس إلى المحاسبة ما دامت في دار المُهْلة والعمل، قبلَ أن يقفَ الإنسانُ بين يدي الله ﷻ يومَ القِيامة، وقد أهملَ إصلاحَ نفسِهِ، وكانت سببَ هلاكِه.

وقد كان السَّلفُ الصالحُ يُذكِّرون النَّاس ويُوصُونهم بضرورة محاسبة النَّفس، وإصلاحها، قبل فوات الأوان، وحلول المَنِيَّة، ويَحسُن في خِتام هذه الرسالة نقلُ بعض الوصايا التي جاءت عنهم في هذا الباب؛ وعلى رأس هؤلاء الخلفاء الأربعة الراشدون:

❁ قال الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «اعلَموا عِباد اللهِ أنكم تَغْدُونَ وتَروحُون في أَجَلٍ قَد غُيِّبَ عنكم

عِلْمُهُ، فإن استطعتم أن تَنْقَضِيَ الآجالُ وأنتم في عَمَلِ اللهِ فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بِاللهِ، فسابِقُوا في مُهْلِ آجالِكُم، قبل أن تَنقَضِيَ آجالكُم فيَرُدَّكُم إلى أسوَأ أَعمالِكُم؛ فإنَّ أقوامًا جعَلُوا آجالَهُم لغيرِهِم ونَسُوا أَنفُسَهُم، فأَنهاكُم أَن تكونُوا أَمثَالَهُم، فالوَحَا الوَحَا[1]، ثم النَّجا النَّجا، فإنَّ وراءَكُم طالِبًا حَثيثًا، مَرُّهُ سَريعٌ -يعني الموت-»[2].

❁ ويقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسَكُم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أنفسَكُم قبلَ أن تُوزَنوا، وتَزَيَّنُوا للعَرْضِ الأكبر، يومَ تُعْرَضون لا تَخفى مِنكم خافِيَة»[3].

❁ ويقول الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ابنَ

(١) قوله: «فالوَحا الوَحا»: يقال: تَوَحَّيت تَوَحِّيًا، إذا أَسْرَعْت، وهو منصوبٌ على الإغراء، ومعناه في الأثر: السُّرعة السُّرعة. [انظر: «النهاية» لابن الأثير (٥/ ١٦٣)].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» رقم: (٣٥٥٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» رقم: (٣٥٦٠٠).

آدَمَ؛ اعلَم أَنَّ ملَكَ الموتِ الذي وُكِّلَ بك لم يَزَل يُخلِفُكَ ويتَخَطَّى إلى غيرِك مُذْ أنت في الدُّنيا، وكأنهُ قد تَخَطَّى غيرَكَ إليكَ وقصَدَكَ؛ فَخُذ حِذرَكَ، واستَعِدَّ له، ولا تغفل؛ فإِنَّهُ لا يغفَلُ عنك.

واعلَمِ ابنَ آدَمَ إِن غفلتَ عن نفسِكَ ولَم تَستَعِدَّ لها؛ لم يستعِدَّ لها غَيرُكَ، ولا بُدَّ مِن لِقاءِ اللهِ عزوجل؛ فخُذ لنفسِكَ ولا تكِلْهَا إلى غَيرِكَ»[1].

❁ ويقول الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يا أيها النَّاسُ، إِنَّ أَخوَفَ ما أَخافُ عليكم طُولَ الأَملِ، واتِّباعُ الهوى؛ فأَمَّا طُولُ الأملِ فيُنْسِي الآخِرةَ، وأَمَّا اتِّباعَ الهوى فيُضِلُّ عنِ الحَقِّ.

ألا إِنَّ الدُّنيا قد ولَّت مُدبِرَةً، والآخِرَةُ مُقبِلَةٌ، ولكُلٍّ واحدةٍ مِنهُما بَنُونَ، فكونُوا مِن أَبناءِ الآخِرَةِ، ولا تكونُوا

(١) أخرجه أبو بكر الدِّينوري في «المجالس والجواهر» رقم: (٢٠٧).

مِن أَبناءِ الدُّنيا، فإِنَّ اليومَ عَمَلٌ ولا حِسابٌ، وغدًا حِسابٌ ولا عَمَلٌ»(١).

❁ ويقول الحسن البصريُّ رحمه الله: «المؤمن قَوَّامٌ على نَفْسِهِ؛ يحاسِبُ نفسَهُ، وإنَّما خفَّ الحِسابُ يومَ القيامة على قَوْمٍ حاسَبوا أنفسَهُم في الدنيا، وإنَّما شَقَّ الحِساب يومَ القِيامة على قومٍ أَخَذُوا هذا الأمْرَ مِن غير مُحاسَبة»(٢).

❁ ويقول ميمون بن مهران رحمه الله: «لا يكونُ العبدُ تَقِيًّا حتى يكونَ لنَفْسِهِ أشدَّ محاسبَةً مِنَ الشَّريك لِشَريكِهِ»(٣).

ولهذا قيل: «النَّفْسُ كالشَّريك الخَوَّان؛ إن لم تُحاسِبْهُ ذَهَبَ بمالِك»(٤).

ويَتأَكَّدُ هذا المقامُ في هذه الأزمنة التي كثرتْ فيها الفتن والصَّوارِفُ عن الخير، وعَظُمت الشُّرور التي تُسوِّلُ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» تعليقًا مجزومًا به، قبل رقم: (٦٤١٧).
(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم: (٣٠٧).
(٣) أخرجه وكيع في «الزهد» رقم:(٢٣٩).
(٤) انظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ١٣٣).



الباطلَ للنُّفوس، وتُزيِّنهُ لها.

وقد كان الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله -وهو من جِلَّة علماء التابعين- يقول عن زمانه: «**إنَّ الصالحين فيما مَضَى كانت أنفُسُهُم تواتِيهم على الخير عَفْوًا، وإنَّ أنفُسَنَا لا تَكَادُ تواتِينا إلا على كُرْهٍ، فينبغي لنا أن نُكْرِهَها**»[1]، فكيف الحالُ في زماننا ؟!

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُليا أن يُصلحَ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعلَ الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شرٍّ.

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص٤٧).